(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(٤)

الحجُّ وارتباطه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحـجُّ عبادةٌ قديمـةٌ منذ الأزل، وهذا يدلُّ على شـرفه، وعلُوِّ منزلتـه، وكثرة أجـره وثوابه، وقد قيـل: أنّ الأنبيـاءَ كلَهم عليهم الصلاة والسلام حجّوا البيت، قال أبو المعالي الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: **(ما من نبي إلا وقد حج هذا البيت)**[1].

وقـال ابن عـلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال ابن إسـحاق: لـم يبعث اللهُ نبيًـا بعـد إبراهيـم إلا حـج، والذي صرح بـه غيره أن مـا من نبي إلا حج)**[2].

وعَـن ابْنِ أَبِي لَبِيـدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْـبِ الْقُرَظِيِّ - أَوْ غَيْرِهِ - قَالَ: **(حَجَّ آدَمُ فَلَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا برَّ نُسُكُكَ يَا آدَمُ)**[3].

(١) [نهاية المطلب:٤/ ١٢٥]

(٢) [دليل الفالحين:٧/ ٧١]

(٣) [البداية والنهاية:٢/ ٢٩٩].

وقد ذكَرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو المربي الأوَّل للأُمَّة والمعلِّم الأول لها- أحوال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الحجِّ في مواطن كثيرة.

ذكرهم في حال الإحرام، وذكرهم في عرفة، وذكرهم في منى؛ كلُّ ذلك تذكيرًا للحجَّاج وقاصدي بيت الله الحرام بشرف هذه العبادة، وأنَّ هؤلاء الصفوة من البشر قد أدَّوها، وحرصوا عليها.

وذكْرُ هذا له مغزى عميق، وثمرة ظاهرة، فشعور الحاجِّ أنّه متأسٍّ بخير البشر، والمصطفَين مِن عباد الله يجعله فرِحًا مسرورًا بهذا الاصطفاء، ومتشرّفًا بهذا التأسي.

وإحياء هذا التذكّر عند كلِّ شعيرة من شعائره يجعله يعيش هذا النسك وهو في غبطة من أمره يتذكّر بها رحمة الله به.

فإذا عزم السفر للحجِّ تذكَّر أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة والسلام- وقد أمّوا هذا البيت، قاصدين مرضاة الله، مستجيبين لأمره، فهي عبادة جعلها الله للأمم السابقة ممَّا يدلُّ على فضلها ومكانتها، وحبِّ الله لها، ورضاه عن أهلها، ووعدهم بالإكرام.

وإذا أحرم تذكَّر إحرام الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لربهم إيذانًا بدخولهم هذا النسك المبارك.

وإذا لبّى تذكَّر تلبية موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم يُلبُّون لربهم، ويُعلنون الاستجابة له، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين مكة والمدينة، فمررنا بوادٍ، فقال: "أيُّ وادٍ هذا؟ " قالوا: وادي الأزرق. قال: "كأني أنظرُ إلى موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعًا إصبعيه في أذنيه له جُؤارٌ إلى الله بالتلبية، مارًّا بهذا الوادي"**

قال: ثمّ سرنا حتى أتينا على ثَنِيَّة، فقال: "أَيُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟ " قالوا: ثنية (هَرْشى) أو (لَفْتٌ). قال: "كأني أَنظرُ إلى يونُسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ناقةٍ حمراءَ عليه جُبَّةُ صوفٍ وخِطامُ ناقتِه خُلْبَةٌ، مارًّا بهذا الوادي مُلَبِّيًا"[1].

وانظر إلى تواضعهم لربهم في هذا النسك، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لقد مرّ بـ (الرَّوحاءِ) سبعون نبيًّا، فيهم نبيُّ اللهِ موسى، حفاةً عليهم العَبَاءُ، يَؤُمُّونَ**

(١) رواه ابن ماجه وابن خزيمة وصححه الألباني.

بَيتَ اللهِ العتيق"[1].

وإذا بلغ مكة وبدأ بالطواف حول البيت، استحضر هؤلاء الصفوةَ مِنَ البشر، ومَنْ بعدهم مِنْ خيار الخلق من الصحابة -رضوان الله عليهم- والصالحين من عباد الله وقد طافوا حوله، ومشت أقدامهم في هذا المكان المبارك، وارتفعت دعواتهم، وامتلأت قلوبُهم تعظيمًا لربهم، وتوجّهتَ له يرجون فضله، ويأملون إحسانه، ويخافون عذابه، ويسألونه رضاه عنهم.

وهكذا في السعي يتذكر سعي أمّ إسماعيل عَلَيۡهِاۡلسَّلَامُ وكيف سعت طلبًا للماء، فعوَّض الله صبرها وإيمانها بماء زمزم، الذي جعله الله آية من آياته الخالدة، وفيه تذكرة إلى أنَّ من أطاع الله وتوكل عليه واعتصم به، فإنه لا يُضَيِّعُهُ، بل يرفع ذكره؛ ولذا لمَّا قالت هاجر لإبراهيم: (آلله أمرك بهذا)؟ قال: (نعم) قالت: (اذهب فلن يضيّعنا)، فرفع الله ذكرها، وصار الناس يسعون مثلها وفيهم الأنبياء عَلَيۡهِمۡاۡلسَّلَامُ.

(١) رواه أبو يعلى والطبراني، ولا بأس بإسناده.

يقول ابنُ عباس: وجعلَتْ أمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ وتَشْرَبُ من ذلك الماءِ، حتى إذا نَفِد ما في السِّقاءِ عَطِشَت وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى -أو قال: يتلبَّطُ- فانطلقت كراهيةَ أن تنظُرَ إليه، فوجَدَت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَتِ الواديَ تنظُرُ: هل ترى أحدًا؟، فلم تَرَ أحدًا، فهَبَطَت مِنَ الصَّفا حتى إذا بلغَتِ الواديَ، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعت سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ، حتى إذا جاوزت الواديَ، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، ونظَرَت هل ترى أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا، ففعلت ذلك سبْعَ مرَّاتٍ، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"فذلك سَعْيُ النَّاسِ بينهما"**(١).

ويتذكر إذا سعى سعي نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعظِّمًا ربه مستجيبًا له، فيقف على الصفا داعيًا ربه، ذاكره بكلمة التوحيد، متذكرًا فضل الله عليه بانتصار دينه، وخذلان الكفر وأهله، فيومٌ من الأيّام صعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا ونادى في قريش، فاجتمعوا له فحذَّرَهم وأنذرهم عذاب الله، وأنَّهُ رسولُ الله إليهم فما كان

(١) رواه البخاري.

من عمّهِ أبي لهب إلاَّ أن ردَّ عليه ردًّا جافيًا قائلًا له: (تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟!) فنزل ولم ينصره أحدٌ، واليوم يصعد على الصفا، وبين يديه مئة ألف مسلم، ووراءهم أضعافهم كلهم مسلمون مؤمنون بربهم، فيُهلِّلُ ويُكبِّرُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحميدًا وتكبيرًا لله الذي نصر عبدَه، وأعزّ جندَه، وهزم الأحزاب وحده، وينتشر الإسلام، وتتم النعمة، ويُذَلُّ الكفرُ والكافرون.

يتذكَّر المؤمنُ هذا وهو واقفٌ على الصفا والمروة، ويُهلّلُ ويُكبّر ربه، ويدعوه ويسأله.

إنّ من شعر بهذا الشعور لحريٌ بأن يكون قلبُه حاضرًا في وقوفه ودعائه ومناجاته لربه وهو في هذا المقام.

وهكذا إذا وقف في عرفة يتذكَّر وقوفهم في هذه الأماكن المباركة، يتعبّدون لله بالوقوف، ويسألونه رضاه ورحمته وفضله، ولذا لمَّا كان يوم عرفة ذكَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بهذا، وأنَّهم على إرث أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"قِفُوا على مَشاعِرِكم؛ فإنكم على إِرْثٍ**

مِنْ إِرْثِ أبيكم إبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليه"[1].

وسيأتي معنا في وقفة عرفة.

وإذا بات في مزدلفة تذكر مبيت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والصالحين من بعدهم، الذين باتوا تعبُّدًا لربهم في هذا المكان، وذكروا ربهم فيه، خاشعين خاضعين بين يدي ربهم ومولاهم، وتذكَّر حالَ إمامهم محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ففي حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "حتَّى أتى المُزْدَلِفةَ فصَلَّى بها المَغْرِبَ والعِشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتينِ، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئًا، ثم اضطجَعَ حتى طلَعَ الفَجْرُ، وصلَّى الفَجْرَ حين تَبَيَّنَ له الصبحُ، بأذانٍ وإقامةٍ، ثم رَكِبَ حتى أتى المشعَرَ الحرامَ، فاستقبَلَ القبلةَ، فدعا اللهَ تعالى وكبَّرَه وهلَّلَه، فلم يَزَلْ واقفًا حتى أسفَرَ جِدًّا، فدفع قبل أن تطلُعَ الشَّمْسُ"[2].

فإذا قصد مِنًى لرمي الجمار، تذكّر أنبياء الله ورسله وهم يرمونها، جاء عن ابنِ عباس رفعه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

---

(١) وهو في صحيح أبي داود.

(٢) رواه مسلم.

"لما أتى إبراهيمُ خليلُ الله المناسكَ عَرَضَ له الشيطانُ عندَ جمرةِ العقبةِ، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخَ في الأرض، ثم عرضَ له عندَ الجمرةِ الثانيةِ، فرمَاه بسبع حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثم عرض له عند الجمرةِ الثالثةِ، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض" قال ابن عباس: (الشيطانَ ترجمون، وملةَ أبيكم إبراهيم تتبعون)[1].

فالحُجّاج من هذه الأمّة متبعون في رميهم هدي أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأوّل من اقتفى هذا الأثر إمامهم وسيدهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رمى هذه الجمرات ووقف عندها داعيًا ربه، سائلاً الفضل منه، معترفًا بمنته عليه، وقد أتمَّ عليه نعمته بإكمال رسالته.

وإذا بقي في مِنى أيَّام التشريق وبجواره مسجد الخَيف، تذكَّر الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- وقد قصدوا هذا المكان وصَلَّوا فيه، فأيقن أنَّ هذا المسجد عتيق، وأنّ هذا الموطن شريف، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "صَلَّى في مسجدِ الخيف

(١) رواه ابن خزيمة في "صحيحه"، والحاكم، واللفظ له، وقال: "صحيح على شرطهما".

سبعون نبيًّا منهم موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنّي أَنظُرُ إليه وعليه عباءتان قَطَوَانِيَّتان وهو مُحرِمٌ، على بعيرٍ من إِبل شنوءة، مخطوم بخطام ليف، له ضفيرتان"[1].

إنّ تذكّر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في رحلة الحجِّ يُشعر الحاجَّ بالفخر والاعتزاز بالانتساب لهؤلاء الصفوة من الخلق، والتأسي بهم، وهذا جانب من جوانب العظمة في رحلة الحاجِّ إلى بيت الله الحرام.

❋❋❋

(١) رواه الطبراني في "الأوسط" وإسناده حسن.